الحاسة الاجتماعية في فكر مالك بن نبي

"تشكلها وانفراطها"

التهامي مجوري

مؤسسة ميلاد العلمية الثقافية —

أكاديمية الثقافة السننية للتجديد الحضاري (الجزائر)

raistahrir@gmail.com

مدخل

المعروف عن الاستاذ مالك بن نبي رحمه الله كمفكر، أنه لم يكن متخصصا في أي فرع من فروع العلوم الإنسانية، فلم يكن عالم نفس، ولا عالم اجتماع، ولا عالم تربية، ولا عالم سياسية أو اقتصاد أو غير ذلك من العلوم الإنسانية...، وإنما بحكم اهتمامه المركّز بفلسفة التاريخ والحضارة، وانشغاله المستمر بالبحث في أسباب انهيار حضارة أمته، فقد خاض في كل هذه العلوم ووظفها في أبحاثه ودراساته في إطار تكاملي، بحيث بدت هذه العلوم كلها في دراساته وأبحاثه، بما في ذلك العلوم الدقيقة التي هي من تخصصه، وكأنها تمثل وحدة متكاملة خادمة لبعضها البعض، لا تقبل الانفكاك عن بعضها؛ بل ليست مستقلة عن بعضها، لأن استقلالها عن بعضها البعض فيما يظهر من دراساته مضر بها جميعا.

ذلك أن الأستاذ مالك بن نبي، يتعامل مع العلوم الإنسانية كتعامله مع العلوم الطبيعية، و يفترض

دائما أن لها قوانين ناظمة لها وثوابت ومتغيرات، كغيرها من العلوم الدقيقة، بوصفها علوما حاكمة على واقع الناس، مثلما تحكم قوانين الفيزياء عالمهم المادي.

ومصطلح "الحاسة الإجتماعية" الذي تحاول هذه الورقة دراسته من خلال وضعه في سياقاته، والمعاني التي يشتغل عليها الأستاذ مالك بن نبي، يعد من المصطلحات اللافتة لكونه مصطلحا غير متداول بين أهل الاختصاص بهذا اللفظ. ربما توجد عبارات أخرى وضعت لمضامينه المفترضة، ولكن لا أظنها تكون معبرة عن المحتوى الذي خصصه الأستاذ لهذا المصطلح أو خص هذا المصطلح به.

فمصطلح القابلية للاستعمار الذي وضعه مالك بن نبي في أربعينيات القرن العشرين، للتعبير عن النفسية الممسوخة حضاريا مثلا، كان يمكن، أن يحل محله، لفظ الهزيمة، أو الشعور بالدونية، أو الشعور بالنقص، أو مطلق التخلف... كل هذه العبارات أطلقت قبله، وعبر بها الناس عن واقع المجتمع الإسلامي بعد سقوط حضارته، ولكن عندما نقارن كل تلك العبارات بمصطلح القابلية للاستعمار، لا نجد لها القوة والدقة التي لمصطلح القابلية للاستعمار؛ لما له من شمول ودقة في للتعبير عن الحالة النفسية لذلك المجتمع المهزوم الذي أطلق عليه مصطلح: "مجتمع ما بعد الموحدين"، أما التعبيرات الأخرى فهي تنائج وأعراض لأصل المشكلة، وليست المشكلة في حد وهي الحالة التي يتميز بها كل من فقد مبررات سيادته ومبررات وجوده، بحيث لا يسعه إلا الخنوع والخضوع لمن يتمتع بمبررات السيادة والوجود والبقاء. لأن "التاريخ يقرر أن الشعب الذي لم يقم برسالته، أي بدوره في تلك السلسلة، ما عليه إلا أن يخضع ويذل".[1]

ولعل مصطلح القابلية للاستعمار هذا العبير الدقيق المعبر عن الغثائية التي تحدث عنها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث القصعة: "يوشكَ الأُمم أنْ تَدَاعى عليكم الأمم كما تَدَاعى الأَكَلةَ إلى قَصْعتها، فقال قائلٍ: أو من قلّة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنَّكِم غُثاء كَغُثَاء السَّيْلِ، ولَيَنْزعَنَّ الله من صدور عدوّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ في قُلُوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا الله؟ قال: حبُّ الدُّنيا، وكراهيةُ الموت"[2]، وما الوهن إلا الحالة النفسية التي يفقد فيها الإنسان البقاء الحقيقية المتمثلة في التضحية والصَبر والصمود والمقاومة، متعلقا بأوهام البقاء بالتعلق بالدنيا ورفض الموت رغم أنها نهاية كل حي.

1- انظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 20، نر: عبد الصابور شاهين، ط دار الفكر سنة 1986

2- انظر: ابن الأثير، جامع الأصول، رواد أبو داوود عن ثوبان رقم 7481

لقد ورد لفظ "الحاسة الاجتماعية" في كتاب شروط النهضة، في معرض الكلام عن بدايات حركة الإصلاح وأثرها في المجتمع الجزائري وذلك في قوله: **"رجوع الحاسة الاجتماعية إلى الجزائر، أنها قد عادت إلى الحياة التي يستأنف فيها كل شعب رسالته، ويبدأ تاريخه"**[3]. كما ورد لفظ **"الحس الاجتماعي"** في مذكرات شاهد القرن في معرض كلامه عن مراسلات كانت بينه وبين آخر، حيث قال: **"ولكنني اليوم أسأل نفسي لماذا لم يتسلح بشيء من الدعاية أو الحس الاجتماعي ليجيبني على رسالتي"**[4]. أي لم يتحل بالقيمة الأخلاقية الاجتماعية التي تليق بهذه الحالة.

وفي كلا الموضعين يعبر اللفظ "حاسة وحس" عن حالة نفسية اجتماعية معينة، أو عن قيمة جماعية، يكون عليها المجتمع عندما يرتقي إلى مستوى الشعور بضرورة النهضة، أو بالحاجة إلى ذلك، أو عندما يحس بأن هناك مشكلة تعوقه في حياته، مثل العرف العام أو القانون أو الحالة التي تفرض نفسها كقضية جارية ومطردة، وقضية إيجابية وليست سلبية، تعبر عما ينبغي أن يكون عليه المجتمع بطبيعته البشرية الإيجابية.

وهو ما تحاول الورقة بحثه وعرضه وفق خطة البحث التالية:

- **تعريف الحاسة الاجتماعية**
- **مواصفات الحاسة الاجتماعية**
- **مكونات الحاسة الاجتماعية**
- **حول مكونات الحاسة الاجتماعية**
- **متى يفقد المجتمع حاسته؟**

3- انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 23

4- انظر: مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ص 139، ط دار افكر، سنة 1984

تعريف الحاسة الاجتماعية

الحاسة في لغة العرب[5]: هي القوة التي بها تدرك الأعراض الحسية. والحواس: المشاعر الخمس. وحسست نحو علمت وفهمت، لكن لا يقال ذلك إلا فيما كان من جهة الحاسة، وكما قال ابن الإحْساس: الْعِلْم بالحواس، وأحس الرجل الشيء إحساساً علم به، وأحسست أ دركت بحاستي، وقوله تعالى: (هل تُحسُّ منهم من أحد) [مريم/98]، أي: هل تجد بحاستك أحد منهم؟ وعبر عن بالحسيس والحَس، قَالَ تَعَالَى: (لَا يسمعون حسيسها) [الأنبياء 102]، والحسيس هو الصوت وأَحْسستُ بالشَّيء: شعرت به، وما أَحسست بالْخَبر، لَم أَعرف منه شيئا. وقيل أَحسست: أي ووجدت. وتحسَّس الْخبر: تطلّبه وتبحّثه. وفي التنزيل: (يا بنيَّ اذْهبُوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه تيأسوا من رَّوح اللّه) [يوسف 87]. وقَالَ أَبو معاذ: التَحسُّس شبه التَّسمُّع وَالتَّبصُّر؛ قَالَ: بالْجيم، الْبحث عن الْعورة.

ومدار اللفظ "حس وحاسة"، على جملة من وسائل الإدراك المختلفة، وهي مدارك حسية ومعنوية. أما المدارك الحسية فهي الحواس الخمس: حواس اللمس والشم والطعم والبصر والسمع. اما المدارك المعنوية فهي الأحاسيس الداخلية للإنسان، وقد عرفت عن البعض بالحاسة السادسة، التي كثيرا ما تطلق على المدركات غير العادية ومنها الأمور التي تباغتنا "حينما نتعرض للخطر، وهو ظهور فجائي لقوة خارقة تقذف بنا بعيدا عن مكمن الخطر، هذا الأمر يعطي مدلولا ثابتا ألا وهو أن بداخلنا قوة خارقة لا تظهر إلا عند الخطر... هذه القوى التي تنشط وتخمد حسب مقتضيات الانفعالات والتفاعلات الطارئة"[6].

وعالم المدركات غير الحسية واسع جدا ومعروف في الكثير من الأمور التي يشاهدها الناس، مثل التخاطر، والتلباثي، والفراسة، وهي من المشاهدات التي لا تخضع لضابط معين، لوجودها عند بعض الناس، وغير موجودة عند آخرين، والموجودة عندهم متفاوتون في ذلك، فهي قوية عند بعضهم وضعيفة عند آخرين، ولعل الحديث النبوي الشهير: "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"[7]، يدخل في هذا النوع من الأحاسيس التي يصعب فهمها وتفسيرها.

5- انظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة: ح س

6- د. محمد السقا عيد بتاريخ 2013/9/12م

7- انظر: ابن الأثير، المرجع نفسه، رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رقم 4790

والحاسة الاجتماعية أو الحس الإجتماعي غير هذا بلا شك، لأن ذلك هو معنى الحاسة عند الفرد، اما الحاسة عند المجتمع فأمر مختلف، إذ لا توجد حاجة تسمى الحاسة في المجتمع، مثل الحواس الخمس عند الأفراد، وكذلك لا توجد حاسة داخلية كما هي عند الأفراد تعبر عن شعور ما، ككتلة واحدة تعبر عن شيء ما بنفس المجتمع، إنما هي جملة من الأحاسيس والمدركات موزعة على الأفراد، تتشكل عند الجماعة في ظل فكرة جامعة تتحول إلى ثقافة دارجة بين الناس، فتعبر عن معنى معين يتبناه المجتمع ككل، بما يشبه الحدس عند الفرد، يدرك به المجتمع ما ينقصه ما يريد الوصول إليه، وما ينبغي أن يكون عليه، بل يزرع فيه ما يشبه قرون الاستشعار التي تعصمه من المخاطر والمخالفات.

ذلك ما فهمناه من مصطلح "الحاسة الإجتماعية" في فكر مالك بن نبي، الذي يتحسس القوانين الإجتماعية ويتلمسها في سلوكات الأفراد، ويحاول إعمالها في حركة المجتمع، مثلما فعل في تحديد عمر المجتمع ومستواه الفكري، من خلال المراحل العمرية التي يمر بها الأفراد وانعكاساتها على الواقع.

فالطفل عندما يفتح عينيه، يجد نفسه محاط بعوالم لا تعني له شيئا ابتداء، ولكنه يندمج فيها شيئا فشيئا. فيده ومصاصته وثدي أمه لا يعني له كل ذلك، إلا أنها أشياء يعبث بها...، وبعد فترة يبدأ في التعرف عن الوجوه التي تحيط به، فيتعرف أمه ووالده وإخوته ويفرق بينهم، وهنا يكون قد خطا خطوة في الانتقال من عالم الأشياء إلى عالم الأشخاص، وفي الخطوة الثالثة بعد مدة أيضا، يبدأ في التعرف على عالم ثالث وهو عالم الأفكار، عندما يدخل المدرسة فيرتقي إلى مستوى عالم المعاني[8]. فهذه العوالم الثلاثة هي التي تصنع في الفرد الكتلة النفسية الاجتماعية التي سيتفاعل بها مع الواقع.

والمجتمع أيضا يمر بهذه المراحل في نموه الفكري، ففي حالة التخلف يكون المجتمع في مرحلة الطفولة التي يتعلق فيها بالأشياء؛ فيعبر عن الأمور كلها بالأشياء مدحا وذما، بمدح الأموال والمناصب، بوصفها القيم التي تمثل الفضائل في الحياة و يتحاكم إليها، ويذم مضاداتها، ثم في أرقى يتحول إلى قياس الأمور بالأشخاص، فيثني على الأغنياء ويقلد أهل المناصب والمكاسب، هذا ويستشهد بقول هذا ويتحدث عن ذاك؛ لأن المقياس هنا ترقى قليلا فتحول من الاستشهاد بالأشياء إلى الإستشهاد بالنماذج والقدوات من الأشخاص، وفي مرحلة أرقى يتحول إلى التحاكم إلى الأفكار،

8- انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة واحمد شعبو، 29 بنصرف، ط دار الفكر، سنة 1988

فيخضع كل شيء إلى الفكر ومقرراته، وهي المرتبة الأفضل والأنسب للإنسان السوي، وعند اكتمال هذه الصور الثلاث، فيما يشبه العملية التراكمية التي تندمج فيما بينها في إطار هذه العوالم الثلاثة، تولد الحاسة الاجتماعية؛ لأن مجرد وصول المجتمع إلى مرتبة عالم الأفكار، يكون قد هضم المرحلتين السابقتين واستفاد منهما، بالقدر الذي مكنه من الانتقال إلى عالم الأفكار، أو هكذا يفترض.

ثم إن تصرفات الأفراد في المجتمع، تصنعها ثوابت المجتمع؛ لأن عوالم الأفكار والأشخاص والأشياء "تتعايش طوال حياة الإنسان جنباً إلى جنب مع تفوق أحدها تبعاً للفرد ولنموذج المجتمع الذي يندمج فيه. وفي المجتمع الذي يدور فيه عالم الأفكار حول محور الأشياء تأخذ الميول الفردية الوجهة ذاتها. ولقد سأل بن نبي طفلاً في إحدى البلاد العربية ماذا يعطونكم في المدرسة؟ فأجاب الطفل بعفوية يعطوننا بسكويت؛ لأن معنى (أعطى) عند الطفل مرتبط بعالم الأشياء"[9].

ولصعوبة وضع تعريف لهذا المصطلح ابتداء، نرى من الضروري استحضار صورة عن مواصفات هذه الحاسة، وكيف تتشكل في المجتمعات ويخضع لها الأفراد؟ لأنها بالتأكيد ليست حواسا كالتي عند الأفراد، ولكنها في نفس الوقت موجودة في المجتمع، بالمعنى المعبر عن حالة الحاسة عند الفرد، والشاهد على ذلك المجتمعات المتحضرة وانضباطها وخضوعها لمقررات مؤسساتها. ثم كيف تتفاعل العناصر المكونة لها فيما بينها؟

مواصفات الحاسة الاجتماعية

إن أول مظاهر الحاسة الاجتماعية، هي عندما ينتقل الفرد من فرديته وأنانيته إلى التعبير عن في سلوكاته وأرائه ومواقفه؛ لأن بداية التغيير الاجتماعي هي عندما يتحول الفرد من كونه (فرداً) ((Individu)) إلى أن يصبح (شخصاً) ((Personne))، وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع"[10]، أي عندما يعود الإنسان إلى طبيعته المسؤولة التي ينبغي أن يكون عليها وهي العودة إلى الجماعة، وبناء شبكة علاقاتها: أشخاصا وأفكارا واشياء، إذ "المعلوم أن أول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال هذه الشبكة من العلاقات؛ لأن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده"[11]،

9- انظر: المرجع نفسه، ص34

10- انظر: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصابور شاهين، 31 بتصرف، ط دار الفكر، سنة 1986

11- انظر: المرجع نفسه 28 بتصرف

العلاقات الخاصة بعالم "الأشخاص" هي التي تقدم الروابط الضرورية بين الأفكار والأشياء، في نطاق النشاط المشترك الذي يقوم به مجتمع ما. واجتماع الأشخاص في أي ظرف وفي أي مكان، هو المرئي عن هذه العلاقات في شكل هيئة تظاهرة، أو مدرسة، أو جيش، أو مصنع، أو نقابة، أو سينما...، هو تعبير عن شبكة هذه العلاقات في صور مختلفة. فالاجتماع الذي يتمثل فيه أول عمل يؤديه ترجمة صادقة وقوية عن شبكة علاقاته.... ومجموعة من القواعد الأخلاقية والجمالية...إلخ، ,كل ما يكون صلة من أي نوع في نطاق العوالم الثلاثة: عوالم: الأشخاص والأفكار والأشياء، أو هو في الحقيقة علاقة مشروطة بوجود ثقافة"[12].

أن الإنسان كائن اجتماعي وليس كائنا فرديا، واجتماعيته ليست خيارا، وإنما هي فطرة وطبيعة خلقية وضرورة اجتماعية، إذ "لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة وهي معنى العمران، لأن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة، لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرصة وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، ,كل واحد من هذه الأعمال الثلاثة، إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري"[13]، بحيث يتعذر على الفرد ان يعيش بمفرده، وذلك ملاحظ في الطبيعة التراحمية لوحدة ونظام الأسرة، الذي لا يزال قائما بابعاده الإجتماعية في المجتمعات المحافظة خاصة، وكذلك في المجتمعات المتحضرة التي تقدم من الضمانات الإجتماعية لأفرادها؛ بل إن الفردية تمثل انحرافا عن الطبيعة البشرية، ونزوعا نحو الحيوانية، بسبب ما يتعطل من مصالح الناس بسبب انعزالهم عن بعضهم البعض، وابتعادهم عن روح الجماعة.

والحاسة الاجتماعية إنما تُرى أدواتها وآثارها في الواقع، مثلما ترى الحواس الخمس وما تحسه: اليد والعين والأنف واللسان والأذن ومدركاتها. وأدوات الحاسة الإجتماعية في المجتمعات تظهر في تماسك اجتماعي، وحراك شعبي عريض، ويقظة جماعية، وفي شكل حالة تفاعلية تعم غالب المجتمع أو كله، وكما جاء في الحديث النبوي "مَثَلُ المؤمنِينِ في تَوادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم: مثل إذا اشتكى منه عضو: تَدَاعَى له سائر الجسد بالسَّهرِ والحمى"[14]، وقولَه "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ

12- انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص 33

13- اتظر: مقدمة ابن خلدون

14- انظر: ابن الأثير، جامع الأصول، رواه البخاري ومسلم عن العمان بن بشير رقم 4771

بعضه بعضا"[15]، أو في تعبير عن بوادر نهضة، كما كان الحال في بداية النهضة الإصلاحية في الجزائر سنة 1925 حيث "تحولت مناجاة الفرد إلى حديث الشعب... لقد انطلقت الأفكار، ثم تلاقت وتصارعت، فكانت أحيانا تنفجر مثل فقاقيع الهواء على سطح (الغلاية)... في صورة مدرسة، أو مسجد، أو مؤسسة إصلاحية، وظهرت النظريات الاجتماعية التي كانت يومئذ رائجة في سوق ظهرت هذه النظريات في أفكار الشباب المتطلعين إلى كل تجديد، فهذا يرنو إلى المذهب الكمالي، وذاك يأخذ بالمذهب الوهابي، وذلك ينزع إلى التمدن الغربي، ومنهم من انحدر بفكره إلى مذهب المادة"[16].

وروح الجماعة التي تقتضيها الحاسة الاجتماعية، وجود الشعور الجماعي بما بهدده وما يرقي المجتمعات، بحيث يتمكن المجتمع من تحاشي ما يهدده، ومن التمسكك بما يرقيه.

ومثلما للأفراد حواسا خمس يدرك بها الأشياء، لمسا ورؤية وشما وذوقا وسمعا، فإن للمجتمع ذلك الشعور هو الذي يمثل الحاسة او الحواس التي يدرك بها الأشياء، حركة وانتعاشا وتفاعلا مع الطبيعة والمحيط، جلبا للمصالح درأ للمفاسد.

إن الحاسة الاجتماعية، مثل قرن الاستشعار، يدرك بها المجتمع كل ما يرقيه ويرفعه إلى المعالي فيتعلق به، وكل ما يثنيه ويشد من عزمه ليتحاشاه ويتجنبه، وهي من مكتسبات المجتمعات المتحركة، أما المجتمعات الراكدة فلا تمتلك هذه الحاسة، بسبب ما يهمين عليها من هزائم نفسية تشدها إلى القعود والركود والكسل واللافاعلية.

والحاسة للمجتمع ليست ثابتة وعلى درجة واحدة دائما، وإنما ترتفع وتنزل بقدر فاعية والمجتمع وركوده، مثل نشاط مدركات الفرد تماما، بعضها ينشط وبعضها يتعطل...، ولذلك كان التخلف والتقاعس، وتخلي المجتمعات عن دورها في الحياة، نتيجة فقدانها للحاسة الاجتماعية، او هي سبب في فقدانها؛ لأن الحاسة الاجتماعية، مثلما هي آلة استشعار للكشف عن بعض الأمور في المجتمعات، هي في نفس الوقت ثمرة لحركة المجتمع في الاتجاه الصحيح.

مكونات الحاسة الإجتماعية

تتكون الحاسة الإجتماعية بوصفها حالة اجتماعية، تنبئ برجوع المجتمع –أي مجتمع- إلى

15- انظر: ابن الأثير، المرجع نفسه، رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رقم 4796

16- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 24، نر: عبد الصابور شاهين، ط دار الفكر سنة 1986

التي ينبغي أن يكون عليها، إلى جملة من المكونات تتشكل ككتلة نفسية اجتماعية واحدة.

ولكن قبل أن تتشكل هذه الكتلة، يمر المجتمع بمراحل –متسارعة أو بطيئة–، بالكثير من التحولات الضرورية، في إطار منهجية الجمع بين عوالم: الأشخاص والأفكار والأشياء، ومعرفتها ووضعها في موقعها من الفعل الحضاري، ونقلها من الشعور الفردي إلى الحاسة الجماعية، وقبل ذلك معرفة المرحلة التاريخية للمجتمع وموقعه من دورة الحضارة، حيث أن مجتمع ما قبل الحضارة مجتمع بدائي، لا يزال على الفطرة ومستعد للإندماج في أي فكرة تطرأ عليه، كما يتميز بالفقر والحاجة إلى أبسط الوسائل، يختلف في خصائصه عن مجتمع ما بعد الحضارة، وهو المجتمع التي كان في حضارة، ولكنها أَ فَـلَت لفقدانها مبررات البقاء، الذي ربما امتلك الوسائل، ولكنه يحتاج إلى جهد لإفراغه من حالته الغثائية ليتقبل الفكرة الجديدة[17]. ويتخلل ذلك تفاصيل جزئية ذات أهمية، وهي لملمة شتات المجتمع وقيمه الفاضلة ومراجعته والفصل ما بين ذلك من نقائض واستبعاد النقائص والمثبطات منها...إلخ.

ثم إن آليات المجتمع التي تتكون منها الحاسة الاجتماعية، ليست مختلفة من مجتمع لآخر، وإنما هي عامة للمجتمع الإنساني، بقطع النظر عن خلفياته الدينية والثقافية والعرقية والسياسية؛ لأن "مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"[18]، من حيث ان القوانين التي تحكم الإنسان واحدة، لا تختلف من شعب لآخر ومن مجتمع لآخر، مع خصوصيات نلمسها في التفاصيل الجزئية لكل شعب او لكل مجتمع. فنعدما نتكلم عن الدين فهو ظاهرة كونية لا بد منه لكل إنسان، لكن هل الدين هذا المجتمع سماوي أم وضعي؟ أو هو إسلام أم نصرانية أم يهودية؟ فأمر آخر.

وعندما نتعرف على مدى علاقة المجتمع بأشخاصه وأفكاره وأشيائه، وتحديد موقعه التاريخي من دورة الحضارة، ننتقل إلى العناصر التي تتشكل منها الحاسة الاجتماعية، وهي كثيرة ولكن يمكن حصرها في ثلاثة عناصر أساسية وهي: الفكرة، والطاقة الحيوية، والمثل الأعلى.

أما الفكرة فلكونها النواة التي عليها مدار حركة المجتمع. واما الطاقة الحيوية، فهي ما يصرف

17- انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة واحمد شعبو، ص 8-9، ط دار الفكر، سنة 1988

18- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 19، نر: عبد الصابور شاهين، ط دار الفكر سنة 1986

المجتمع من جهد و حركة وعلاقات في سبيل تجسيد الفكرة والوصول إلى المثل الأعلى القائم في مخيلة الجماعة. واما المثل الأعلى فهو الرؤية التي يبني عليها المجتمع نشاطه والغاية التي يسعى إلى تحقيقها.

-الفكرة:

نقصد بالفكرة هنا الصورة الذهنية المدركة للحقائق والغايات التي يراد الوصول إليها من قبل المجتمع، وممثلة لمسوغاتها، ولأنماطها التنفيذية التي تلخّص التقدم الاجتماعي والتقني، بما يميّز المجتمع عن غيره من المجتمعات؛ وقد عبر عنها ماركس بقوله: "إن ما يميز أسوأ مهندس معمار عن أمهر نحلة هو أنَّ المهندس يبني الخليَّة في رأسه قبل أن يبنيها في القفير، وأن العمل ينتهي إلى نتيجة موجودة مسبقاً فكرياً في خيال العامل"[19]، من حيث ان الفكرة هي نتاج عملية الفكر الذي هو حصيلة " حركة عقلية بين المعلوم والمجهول، و ترتيب بعض المعلوم للوصول إلى غير المعلوم"[20].

والفكرة من حيث هي، في إطارها الوظيفي في المجتمع، تمثل كائنا حيويا له وحدة عضوية لا تقبل الزيادة ولا النقصان، إلا بطروء مؤثرات فيها وفيما يحيط بها من خارجها زمانا ومكانا وحالا[21]، أما من جهة علاقتها بأفراد المجتمع، فهي عنصر أساس في إنشاء شبكة العلاقات الاجتماعية، وذلك لصلتها الوثيقة بعالمي الأشخاص والأشياء.

فالفكرة لا قيمة لها إذا لم يكن لها أشخاص يتبنونها وينفذونها، ولها قدر من الأدوات والوسائل – أشياء- لتنفيذها، وكذلك هي مكون أساس للحاسة الاجتماعية نفسها، إلى جانب الطاقة الحيوية، والمثل الأعلى، فلا طريق للمثل الأعلى إلا بعلاقة وثيقة ومتوازنة بين الفكرة والطاقة الحيوية. وهي في نفس الوقت معدة للتحول إلى قيم اجتماعية، وسلوكات لأفراد المجتع، وواقع ملموس في محيطه[22]، عبر منتجي الأفكار من المفكرين والعلماء، والمؤسسات الرسمية والشعبية، من الأحزاب والجمعيات وغيرهم من مؤسسات الدولة والمجتمع، ومنفذبها من أفراد الشعب والمواطنين، تنفيذا للواجبات التي على عاتقهم تجاه المجتمع من أجل ضمان الحقوق المرجوة للجميع.

19- انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة واحمد شعبو، ص 27-28، ط دار الفكر، سنة 1988

20- انظر: التهامي مجوري، عالم الفكر، مخطوط

21- انظر: مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص 125، ط دار الفكر سنة 1981

22- انظر: مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص137 ط دار الفكر سنة 1981

لقد كان لقيم أخرى الصدارة في التأثير على واقع الإنسانية ومستقبلها، مثل السمو العرقي، والطائفية الدينية، والقوة، والسلطة المالية والسياسية...إلخ، "ولكن القرن العشرين قد أعلى من الفكرة باعتبارها قيمة قومية ودولية"[23]، وليست مجرد قيمة اجتماعية قاصرة على فئة من الناس أو مجتمع بعينه دون غيره، تعود بالخير والفضل على تلك الفئة أو المجتمع المعين وحسب؛ بل إن الإنسانية نفسها ارتقت بفضل هيمنة الفكرة وسلطانها، بحيث يمكن للمواطن أن يقبل الضيق في العيش نتيجة لنظام التقشف، عن طيب خاطر وخضوع للفكرة السامية، التي تسوي بين الفقراء والأغنياء، وبأكبر قدر من الفاعلية[24]. ومثال ذلك التضحيات التي تقوم بها الشعوب في الحروب وحركات المقاومة في سبيل فكرة الاستقلال والحرية.

والفكرة بمجرد أن تتوفر فيها الشروط المشار إليها تكون فكرة، ولكن يبقى الحكم على صلاحيتها من عدمه، يبقى معلقا لاعتبارات أخرى لها ثقلها وتأثيرها في الموضوع.

ولكن مهما تعددت الأفكار وتنوعت وحكم لها أو عليها، فإن أقوى واصح وأكثر فاعلية هي الفكرة الدينية، التي هي الأساس في تاريخ البشرية، إذ "أن الحضارة تولد مرتين، أما الأولى: فميلاد الفكرة الدينية، وأما الثانية: فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس. أي دخولها في أحداث التاريخ"[25]؛ لأن "الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية –ولأن– العلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان"[26]، "ولقد أكدت الفكرة الإسلامية فيما مضى صلاحيتها في بناء مجتمع استطاع أن يؤدي نشاطه المشترك بالغة التوفيق. لقد أخضعت هذه الفكرة الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق، فجعلت منه إنساناً متحضراً ومحضراً. والأمثلة كثيرة على أن هذه الفكرة، أظهرت فاعليتها الكاملة في إعادة تنظيم وتوجيه الطاقة الحيوية التي أسلمتها شبه الجزيرة العربية إلى عصر النبي عليه الصلاة والسلام"[27].

–الطاقة الحيوية:

والعنصر الثاني الذي تتشكل منه الحاسة الاجتماعية هو الطاقة الحيوية، التي يستمدها المجتمع من

23– انظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصابور شاهين، ص 14 ط دار الفكر سنة 1984

24– انظر: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصابور شاهين، ص 113 بتصرف، ط دار الفكر، سنة 1986

25– انظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 55، نر: عبد الصابور شاهين، ط دار الفكر سنة 1986

26– انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 54

27– انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 106-107

مجموع أفراده، فيجمعهم عليها في شكل جهد جماعي ينتقل بالأفراد من أنانياتهم القاصرة إلى أشخاص منضبطين وملتزمين ومنتجين في إطار جماعي، من حيث هي مجموع القدرات الكامنة التي يحقق بها المجتمع مراده ف."يستعير من غرائز الفرد طاقته الحيوية اللازمة لأداء نشاطه المشترك في التاريخ... ويعيد توجيهها فيحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة لحفظ النوع، إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان، حين يسهم في النشاط المشترك للمجتمع"[28].

والطاقة الحيوية هي القوى الكامنة في المجتمع، والمتمثلة في مجموع أنشطة المكونات الخلقية له وهي: العاطفة والعقل والروح والغريزة.

ورغم أن بن نبي لم يشر بوضوح إلى مصادر الطاقة الحيوية هذه إلا للغريزة، فإنه ذكر ضمنا باقي المكونات في معرض كلامه عن الفكرة العليا، التي تجمع بين الروحي والاجتماعي، ومتطلبات المسجد والشارع، في إطار واحد متناغم، كما فعلت الفكرة الإسلامية فيما مضى ببناء مجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك بطريقة بالغة التوفيق[29].

إن مصادر الطاقة عند الإنسان على ما بينها من تباين إلا أنها هي التي تشكل شخصية الإنسان بجميع أبعادها، وهي المولّدة للوسائل التي يتوصل بها إلا الغايات.

فالعاطفة هي مصنع وخزان المشاعر، والعقل يمثل المجال الحيوي لفهم العلاقات بين الأشياء وما ينتج عنها، والروح هي الإطار الأسلم للتعلق بالغيب وبناء المثل العليا، والغريزة هي أنسب وأقوى ما في الإنسان في تحديد حاجاته وتحقيقها.

وطاقة الإنسان الحيوية لا تخرج عما تنتجه هذه المكونات الأربعة من قيم، ثم من طاقة متدفقة، ولكن الامتحان العسير يكمن في مدى قدرة الإنسان على استخلاص كتلة طاقوية واحدة، تقررها القيم المنبثقة عن المكونات الخلْقية، بحيث تكون منتجة ومحققة للمثل العليا للإنسان.

ذاك أن متطلبات الإنسان لا تتحقق إلا في إطار واحد يجمع بين إشباع هذه المكونات الخلقية إشباعا متوازنا، لا يغلّب جانبا على جانب آخر؛ لأنها كلها مطلوبة في نفس الوقت، فلا بد من إشباع العاطفة والعقل والروح والغريزة في نفس الوقت، ولكنه إشباع بمنهجية مركبة تركيبا متوازنا فيما بينها، وبنسب متناسبة ومتناغمة، وكل إشباع لجانب من جوانب هذه المكونات على حساب غيره،

28- انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 107

29- انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 107

ينتج قيما تتحول بسببه الطاقة إلى معول هدم، فإشباع العاطفة على حساب العقل ينتج انحرافا والعكس صحيح، وإشباع الروح على حساب الغريزة يشكل انحرافا أيضا، والعكس صحيح، وقل مثل ذلك في جميع هذه المكونات، مع اختلاف وتنوع في هذا الانحراف أو ذاك، ولكن أقل هذه الانحرافات يمثل اعتداء على المنهج، وإقرارا للاختلال في حياة الإنسان، كما جاء في حديث الثلاثة الذين تقالوا عبادة النبي صلى الله عليه وسلم الذين قال فيهم "من رغب عن سنتي فليس مني"، وهذه العبارة تتبرأ منهم بسبب ما أقدموا عليه، رغم أن كل واحد منهم كان يهدف إلى الكمال. والتبرؤ من هؤلاء الثلاثة لم يقع مع آخرين فعلوا نفس الفعل، فأبو الدرداء رضي الله عنه كان زاهدا، وأبو ذر كان زاهدا وأبو هريرة كذلك، ومع ذلك لم يتبرأ منهم النبي صلى الله عليه وسلم، لكونهم فعلوا ذلك كخيارات فردية، بينما الثلاثة فقد أعلنوا عن اختيارهم كخيار جماعي سيؤثر على المنهج مستقبلا، اما غيرهم فكانت خيارات فردية يغلب عليها الطابع الذوقي الشخصي.

-المثل الأعلى:

ونريد بالمثل الأعلى هنا هو الأهداف التاريخية السامية التي عرفها الإنسان في تاريخه، كفضائل يتطلع إليها كل الناس جزئية وكلية، فبعضه يستجيب لمشاعر الإنسان وعواطفه، وبعضه يفرضه منطق العقل ومنهجيته في النظر إلى الأمور، وبعضه تحتمه مطالب الروح بغاياتها السامية، وبعضه خاص بما تهدف إليه الغرائز من حاجات ضرورية. والمثل الأعلى الأكمل هو الذي يستجيب لهذه المطالب كلها في إطار تكاملي بينها، أقرته الخبرة البشرية والشرائع الدينية.

وإذا كانت الفكرة تمثل المبدأ، والطاقة الحيوية تمثل الوسائل المساعدة على تحقيق الأهداف، فإن المثل الأعلى يتطلع إلى الهدف والغاية التي يعمل على تجسيدها الإنسان في مساعيه الفردية والجماعية. والمثل الأعلى وما يحيط به من قضايا الإنسان هو الغاية، من حيث هو الهدف والمبتغى والمراد الوصول إليه من جهة، ومن جهة أخرى هو الضابط للطاقة الحيوية وموجهها الاتجاه الصحيح والمطلوب؛ بل هو المنشط للإرادة إلى جانب القدرة المتمثلة في الطاقة الحيوية.

ولذلك كانت "مشكلة اختيار المثل الأعلى من أهم المشكلات، التي تصادف الفرد في إطاره الخاص لتنظيم (الطاقة الحيوية)، وفي الإطار الاجتماعي (لتوجيه هذه الطاقة الحيوية)"[30].

ثم إن المقصود بالمثل الأعلى هنا الذي يمثل ركنا ركينا في الحاسة الاجتماعية، هو المثل الأعلى

30- انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 73

الذي يصاغ للمجتمع وليس للأفراد فحسب؛ لأن المثل العليا على المستوى الفردي الشخصي جزئية، قد تختلف من شخص لآخر، بسبب ما بين الناس من فروق، من حيث أن للإنسان خصوصيات فردية، قد تنحرف بالمثل العليا عن الغايات الجامعة، فتصرفها إلى غايات جزئية قاصرة على المصالح الشخصية الفردية أو الفئوية العاجلة.

الحاسة الاجتماعية في حركة التاريخ

تختلف الحاسة الإجتماعية في المجتمعات، بحسب موقع هذه المجتمعات في سلم التاريخ، فإذا كان المجتمع في حالة حركة وتفاعل ونشاط وإيجابية، تكون الحاسة الإجتماعية فيه عالية وقادرة على تغيير الواقع والارتقاء به حضاريا، بفضل حسن الإدراك والشعور بالمسؤولية والتنظيم والتنسيق بين مكانات الأفراد وأدوارهم في الحياة.

أما عندما يكون المجتمع في حالة ركود وغثائية فإن الحاسة الإجتماعية فيه تكون خامدة خاملة لا توقظ نائما ولا تشغل متنبها.

ومن ثم فإن الحاسة للمجتمع ليست ثابتة وعلى درجة واحدة دائما، وإنما ترتفع وتنزل بقدر فاعية والمجتمع وركوده، مثل نشاط مدركات الفرد تماما، بعضها ينشط وبعضها يعطل...، ولذلك كان التخلف والتقاعس، وتخلي المجتمعات عن دورها في الحياة، نتيجة فقدانها للحاسة الاجتماعية، وهي سبب في فقدانها أيضا؛ لأن الحاسة الاجتماعية، مثلما هي آلة استشعار للكشف عن بعض الأمور في المجتمعات، هي في نفس الوقت ثمرة لحركة المجتمع في الاتجاه الصحيح.

حول مكونات الحاسة الاجتماعية

إن مكونات الحاسة الاجتماعية التي تتشكل منها، كل واحدة منها تمثل ثقلا معتبرا في صياغة الحاسة الاجتماعية، لما لها من اهمية في حد ذاتها، بحيث يخيل للمرء لأول وهلة إمكانية استقلال كل جانب عن غيره من الجوانب الأخرى.

فالفكرة بما تمثل من ثقل لكونها المبدأ والمنطلق لكل شيء في حياة الإنسان فردا كان أو مجتمعا، قد يعبر بها عن المثل الأعلى عندما تبلغ مستوى من السمو والرفعة فيقال عنها فكرة سامية مثلا.

فالفكرة الدينية مثلا فكرة تمثل مبدأ، ولكنها في نفس الوقت هي الغاية المطلوبة، من حيث أن

الغاية من الوجود الإنساني كله هي تحقيق العبادة لله (وَمَا خَلَقْتُ الْجنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون) 56]، وما عدا ذلك من المبادئ والوسائل وحتى الغايات الجزئية، إنما سَخرتَ لخدمَة هَذه الفكَرة السامية.

وكذلك الأمر بالنسبة للطاقة الحيوية التي هي الثمرة الطبيعية لنشاط العاطفة والعقل والروح والغريزة وما يتولد عنها من قيم، التي هي بدورها تحتاج إلى إشباع كغايات ثابته، وكوسائل لاستمرار الحياة وتحقيق الغايات الإنسانية، وكمبادئ لا يمكن استبعادها كضرورة حياتية.

واخيرا المثل الأعلى الذي هو الغاية التي تهدف إليها البشرية النهاضة في جميع انشطتها، فهو غاية ولكنه في نفس الوقت مبدأ ووسيلة، لتنشيط المعرفة والحركة والعلاقات التي هي وظيفة الإنسان في الوجود، ولولا المثل الأعلى جزئيا كان أو كليا، ما تحرك الإنسان لتحقيق شيء قط؛ لأنه لا يتصور ذلك الشيء إذا لم يصغ في شكل رؤية وهدف يحلم الإنسان بتحقيقه؛ بل إن حركة الإنسان في إطار إشباع مكوناته الخلْقية، لا يمكنها أن تكون إلا وفق مثل عليا تمثلتها تلك القوى الكامنة –المكونات الخلقية-. وبدونها لا تكون حركة ولا أهدافا.

متى يفقد المجتمع حاسته؟

يمكن القول ببساطة أن المجتمع يفقد حاسته، بفقدان مكوناتها أو باضطراب تأثيراتها على الواقع، وهي الفكرة والطاقة الحيوية والمثل الأعلى، لا سيما وان الحاسة الاجتماعية تقوى وتضعف في المجتمع كما مر معنا؛ بل هي قابلة للإكتساب والفقدان كغيرها مما يكسب الإنسان ويفقد، فيفقد المجتمع حاسته، مثلما يقفد المرء حواسه أو بعضها، فيفقد السمع أو البصر أو الذوق او الشم أو اللمس، أو يكون فاقدا لها كلها، مع فارق أن حاسة المجتمع واحدة، وهي التي تمثل الحاسة المشتركة للجميع، وليس حواس أفراده منفصلين عن بعضهم البعض، اما ما يمكن تسميته بحواس الأطراف الاجتماعية، مثل الحس السياسي الأمني عند السلطة ومعارضيها، أو حس المجتمعات المقهورة تجاه نخبها، أو أحاسيس مكونات المجتمع العرقية والمذهبية والفكرية...، فكل ذلك أحاسيس جزئية، لا تعبر عن الحاسة الاجتماعية الكاملة التي نتكلم عنها.

ولكن غياب المكونات لا يكون إلا بغياب مؤثرات أخرى في هذه المكونات...؛ لأن هذه المكونات من إنتاج المجتمع وفئاته وافراده، الذين صنعوا الفكرة وصمموا المثل الأعلى، واستماتوا في يجسيد ما يريدون تجسيده في الواقع، ومن ثم فإن غياب هذه المؤثرات هو الذي بسببه يفقد المحتمع

حاسته.

يذكر العلامة ابن خلدون ان سقوط الدولة يكون في ثلاثة أجيال: ف."الجيل الأول يكون على البداوة وخشونتها وما تبع ذلك من البسالة والافتراس والاشتراك في المجد، والعصبية محفوظةً فيهم وجانبهم مرهوب الناس لهم مغلوبون. أما الجيل الثاني فيتحول من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد، إلى انفراد الواحد به، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتؤنس منهم المهانة والخضوع، ويبقى لهم بعض ما أدركوا من الجيل الأول... إذ لا يسعهم ترك ذلك بالكلية، وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته"[31]. وقد صور ابن خلدون ذلك في المقدمة في أكثر من موضع وبصور مختلفة، ولكنه في كل ذلك يتكلم عن نفسية المجتمع كيف تتحول من الأعلى إلى الأدنى في إطار الدولة، فيما يشبه الحتمية، حتى أنه حدد عمر الدولة بمتوسط عمر الجيل الواحد أربعين سنة، وثلاثة أجيال أي مائة وعشرين سنة.

ثم التقط مالك بن نبي هذه الفكرة وطبقها على الحضارة، ولكنه عكس المسألة، فتكلم عن كيفية نشأة الحضارة وليس عن سقوطها، ووضح ذلك في تطبيقه على الحضارة الإسلامية، التي انطلقت بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وتوقفت عن الصعود بانقلاب الخلافة إلى ملك في عهد بني امية، وكانت هذه المرحلة في ظل هيمنة الروح، ثم استقر الأمر إلى غاية سقوط غرناطة في ظل سلطة العقل، وفي ظل سلطان الغريزة بدأ الانحدار.

والفرق بين طرحي ابن خلدون وبن نبي، أن ابن خلدون كان في عز الدولة والحضارة فما كان يشغله هو هاجس السقوط فأراد التنبيه إلى اسباب السقوط، فكشف عن قوانين ذلك ليتحاشوه، اما بن نبي فقد كان في واقع ما بعد السقوط فانشغل بكيفية النهوض.

وبين الدولة التي هي مؤسسة من مؤسسات المجتمع، والحضارة التي هي غاية المجتمع، تكلم الرجلان عن مواصفات المجتمع الذي على يديه تبنى وتسقط الدول والحضارات، وهو موضوع بحثنا في كيفية اكتسابه للحاسة التي بفضلها ينهض وبفقدانها ينهار، أو ينهض فيكتسبها ويفقدها عندما ينهار ويفقد مبررات بقائه واستمراره.

ولكن الملاحظ عن الرجلين أنهما رغم قوة الطرح ودقة القوانين النفسية التي اعتمداها، لم تخرج

31- انظر: مقدمة ابن خلدون

عن التنبيه إلى مكون واحد من مكونات الحاسة الاجتماعية التي ذكرناها، وهي "الطاقة الحيوية"، المتمثلة في مكونات الإنسان الخلْقية. فالسقوط كما وصفه ابن خلدون سببه نفسي، عواطف وغرائز، اما كيفية الصعود فأوعزه بن نبي إلى نشاط الروح والعقل والغريزة، وكل ذلك لا يخرج عن الطاقة الحيوية.

وما ذُكر من وصف لسقوط الدولة ونشأة الحضارة، لا يكفي تفسيرا مباشرا لفقدان الحاسة الاجتماعية أو استحضارها؛ لأن السقوط نفسه قد يكون سببا في فقدان الحاسة الاجتماعية، كما يمكن أن يكون نتيجة له، وكذلك بالنسبة لنشأة الحضارة وميلادها، يمكن ان تكون سببا لميلاد الحاسة الإجتماعية أو نتيجة له.

ولذلك لا بد من البحث عن الأسباب الأكثر تأثيرا على فقدان الحاسة الإجتماعية، التي يفقد المجتمع بسببها مكانته كمجتمع، لا سيما وان السقوط والنهضة، في واقع الأمر هما النتيجة التي تسبقها شروط للتحقق، وربما يكون مجموع هذه الشروط هو الذي بغيابه يفقد المجتمع حاسته الإجتماعية.

وبالنظر لطبيعة الحاسة الاجتماعية كمؤشر على النهضة، كقرن استشعار لما سيحدث للمجتمع، أو كثمرة لها، يمكن حصر العناصر التي إذا فقدها المجتمع، فقد حاسته الاجتماعية فيما يلي:

- التباعد بين النخبة والمجتمع
- انصراف الناس عن مسؤولياتهم الاجتماعية
- غياب منظومة تربوية للمجتمع

التباعد بين النخبة والمجتمع:

ونقصد بالتباعد بين النخبة والمجتمع، جميع صور التباعد المختلفة، سواء في شكل اعتزال النخبة للمجتمع، أو صورة تهميش المجتمع لنخبه، أو بسبب انقطاع حبل الثقة بينهما، كلها صور لمسمى واحد هو بعد الشقة بين الطرفين.

والمجتمع ليكون مجتمعا بأتم معنى كلمة مجتمع، لا بد من ان يلتقي مجموع أفراده وفئاته على حدود معينة من التماسك والتناغم فيما بينهم، ولذلك جاء في بعض تعريفات المجتمع، انه مجموعة بشرية تلتقي في ساحة جغرافية معينة على مصالح أو غايات معينة، وتنشأ شبكة علاقاته، ببروز علاقة

مباشرة بين عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء فيه، فتتقوى فاعلية المجتمع في الواقع بقدر ما تتقوى العلاقة بين هذه العوالم وتتفاعل.

وكل خلل في هذا الجانب، سواء في أصل نشأة المجتمع بمكوناته المذكورة، أو في طبيعة علاقات هذه العوالم ببعضها البعض، لا يكون معنى للمجتمع؛ لأنه سيكون حينئذ عبارة عن مجموعة أفراد يتعاملون مع بعضهم البعض كيفما اتفق، كل طرف يسعى لتحقيق ما يريد من غير أي اعتبار آخر، وينجح أو يفشل هذا الشخص او ذاك، فذلك أمر آخر غير المجتمع الذي يمكن أن تكون له حاسة.

ثم إن هذا المجتمع عندما يتشكل بالصفة المذكورة، فإنه يتشكل وفق سلم تراتبي أو قل سلم اجتماعي تلقائيا، يوضع كل فرد أو فئة في مكانه الذي يحقق مصلحة الجماعة، لما بين أفراد المجتمع من علاقات فطرية، تربط بينهم في شكل علاقات تراحمية، تبادل مصالح، أو حرصا على البقاء، وفق موقع كل واحد منهم بالسلم الإجتماعي.

فالمجتمع بطبيعته مقسم تقسيما تقنيا، إلى ثلاث فئات: فئة الخبراء، وفئة المتحكمين، وفئة المنتفذين.

والخبراء هم الفئة المنظرة المتمكنة من ميدان التخصص الذي تمارسه، فهذه الفئة هي التي تقوم بكل ما على المجتمع، من واجبات التحضير والاعداد الأولي للتنمية والتطوير والتحيين المعرفي والإنتاجي. أما المتحكمون، فهم الفئة التي تعد الخبرة للتنفيد بالقدر المطلوب للمجتمع مما يقدمه المنظرون من أفكار ومشاريع، في شكل برامج مختلفة قابلة للتنفيذ، اما باقي المجتمع فموزعون على ساحات التنفيذ المختلفة في المجتمع، المتمثلة في المؤسسات الإدارية والمصانع والمزارع والأسواق والقطاعات الخدمية...إلخ.

ومن جانب آخر فإن المجتمع مقسم أيضا تقسيما وظيفيا إلى فئتين: فئة النخبة أو الصفوة من القيادات ومديري مؤسسات المجتمع، وباقي المجتمع.

فالنخبة بفئاتها المتنوعة: النخبة السياسية التي تمارس الحكم والمعارضة معها، والنخب الإجتماعية المتمثلة في الأعيان ورجال الأعمال ووجهاء المجتمع، والنخبة الثقافية التي على عاتقها المجال المعرفي من العلماء والباحثين والأكاديميين...إلخ.

فالنخبة المتكونة من هذه الفئات الثلاث، هي التي على عاتقها قيادة المجتمع إلى ما يرشده.

وكل فئة من هذه الفئات عليها تبعات تقوم بها بمجرد نشأة المجتمع وبناء شبكة علاقاته، وتندمج تلقائيا في الإطار الوظيفي الذي يناسب كل فرد مكانة ودورا.

والتباعد بين هذه الفئات ينعكس سلبا على المجتمع برمته، مهما كانت الأسباب؛ لأن الأسباب في حد ذاتها لها مبرراتها التي تستند إليها التي لا ينبغي أن تكون سببا في القطسعة بينهم... فعندما نقول لا يوجد ثقة بين السلطة والشعب، فمعنى ذلك أن الشعب متمرد ولذلك أسباب...، أو أن السلطة مستبدة ولذلك أسباب ايضا!! ولكن النهاية الحتمية واحدة في الحالتين، وهي فقدان المجتمع حاسته الاجتماعية المؤدية إلى اضطراب المجتمع وخلخلته او تكون نتيجة ل، بسبب التباعد الحاصل بين الفئتين.

ولتفادي مثل هذه الاختلالات لا بد من معرفة من أين يبدأ الخلل؟ هل يبدأ من انحراف السلطة ليتمرد الشعب؟ أم أن الشعب هو الذي تمرد أولا فانحرفت السلطة؟ والإجابة عن مثل هذا التساؤل معقدة جدا؛ بل هو محور بحث جميع الإصلاحيين في العالم الإسلامي منذ أكثر من قرنين على الأُقل.

ولكن ما ينبغي الانتباه إليه، هو ان قيم الانحراف واحدة، تكون في المجتمع ومؤسساته وأفراده، ولذلك لم نجد سلطة انحرفت في التاريخ وبسطت نفوذها وانحرافاتها على الجميع؛ بل العكس وجدنا أن انحراف السلطة يؤدي إلى التمرد الشعبي بصوره المختلفة كرد فعل على ذلك، في صورة تمرد مسلح، كما هو معلوم في التاريخ الإسلامي بطوله، وفي صورة تجاهل الشعب للسلطة واعتماد العرف الاجتماعي، مثلما وقع للشعوب المستعمرة التي لم ترضخ للإدارة الاستعمارية، وإنما استعانت على قضاء حوائجها بالعلاقات، والعادات والأعراف المتوارثة، ومنها الدينية على وجه الخصوص. كما لم يوجد مجتمع فرض خياراته على السلطة بسهولة وبساطة، وإذا وجد فبأثمان باهضة وخسائر يصعب استرجاعها، ولذلك كان التفكير في الأمرين معا، بوصفهما يمثلان جناحي المجتمع اللذين لا يطير إلا بهما معها.

وما يلاحظ من اختلالات في المجتمعات عموما، سببه الأساس يكمن في الهوة التي بين المجتمع ونخبه، سواء بتخلي النخبة عن المجتمع بحجة جهله أو ضعفه، كما تدعي الكثير من نخبنا السياسية، التي لا ترى في الشعب نضجا يؤهله للممارسة الديمقراطية! وكذلك نخبنا الحداثية التي ترى في مجتمعاتها، مجتمعات تقليدية لا تصلح للتفاعل مع الحداثة إلا بتخليها عن تقاليدها! أو بتمرد الشعب عن نخبه التي لا يرى فيها أهلية لقيادتها، فتتمرد عليها بكل الأشكال.

انصراف الناس عن مسؤولياتهم الاجتماعية:

ومن الأسباب التي يفقد بها المجتمع حاسته أيضا، انصراف الناس عن مسؤولياتهم الاجتماعية؛ إذ لكل فرد في المجتمع مسؤوليات اجتماعية، لا تسقط إلا بسقوط التكليف الشرعي والقانوني؛ بل إن المجتمع الذي تكثر فيه الأسباب المسقطة للمسؤوليات، مثل المجتمعات التي تتعرض للحروب، فيكثر فيها المعاقون والعجزة وتفكك الأسر...إلخ، لا يمكنه سد ذلك الفراغ إلا بمضاعفة الجهود وتوسيع دائرة الاستثمار في كل شيء يتحرك، وإلا عانى كما تعاني المجتمعات التي تعيش على هامش التاريخ.

على أن المسؤولية الاجتماعية تبدأ من طبيعة الانسان من حيث هو كائن اجتماعي، بما يمليه عليه هذا الانتماء الفطري من واجبات، سواء في إطار الواجبات التراحمية في دائرة الأسرة، أو في دائرة المجتمع التعاقدية، التي يفرض فيها مبدأ التعاقد على الأفراد الالتزام والوفاء، أو دائرة الأمة وما تفرض من ولاء ديني عقدي وتناصر في الدين، أو في الدائرة الانسانية بما تتطلب من قيم حضارية عامة، رأسها الحاجات الإنسانية، فيما يعرف بموجبات الغريزة[32]. والمسؤولية التي نتكلم عنها في موضوعنا هذا، أوضح ما تكون في الوسط التعاقدي، الذي يقتضي القيام بالواجب من أجل الوصول إلى الحقوق، فإذا انعدم القيام بالواجب أو كان فيه تقصير أو اضطرب، ينعكس تلقائيا على الحقوق المفترضة والمنتظرة من جهات المجتمع المختلفة.

وجدلية الحق والواجب في حياة الناس مسألة جدلية أيضا مثل موضوع البدء بإصلاح السلطة أو بإصلاح الشعب!؟ هل نقوم بالواجب للحصول على الحقوق؟ أم لا بد من الحصول على الحقوق حتى نقوم بالواجب؟

ومع ذلك فإن منطق الأشياء الذي فطر الله عليه الوجود أن القيام بالواجب أسبق من الحقوق لعدة اعتبارات:

الاعتبار الأول: أن الحقوق التي ينالها الناس في المجتمعات هي ثمرة واجبات قام بها أفراد المجتمع، فتحولت بمجموعها إلى حقوق ينالها الناس، مثل الاشتراك في الضمان الاجتماعي، فكل عامل يقتطع له من أجره قسطا كاشتراك شهري، يستفيد منه مجموع العمال. فالاشتراك هنا واجب مفروض على كل عامل، وهو في نفس الوقت حقوقا يجنيها العمال بطريقة ما، ومنها منحة التقاعد التي تؤمن للعامل منحة بعد نهاية المسار المهني في سن معينة.

32- انظر: التهامي مجوري، دوائر الانتماء عند الإنسان مخطوط.

الاعتبار الثاني: أن الواجب مبدأ أخلاقي لا يقاس بما يقابله من الحقوق، وأظهر ما يكون هذا الواجب في إطار الأسرة، حيث يقوم أفراد الاسرة الواحدة بواجبات تجاه بعضهم البعض، كواجبات الزوج تجاه الزوجة، والأب تجاه الأبناء، والابناء تجاه والديهم...، ولا ينتظرون مقابلا؛ بل يفعلون ذلك بموجب مبدإ التراحم المقرر في هذا الوسط من العلاقات، التي تنتقل إلى المجتمع في حالات كثيرة بعد ذلك، ومنها الاستجابة للتحديات الكبرى مثل الكوارث الطبيعية والحروب...إلخ.

الاعتبار الثالث: ان مبدأ الاستخلاف والعمارة الذي قرره الله في كتابه (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة 30]، (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [هود 61] يَقتضي مَن الفرد الشعور بالمسؤولية في كل ما يحدث في المجتمع؛ لأن من مقتضيات الاستخلاف والعمارة، ان هذا الفرد في المجتمع يشعر بما عليه من واجبات، أكثر مما يفكر فيما له من الحقوق؛ لأن الحقوق نتيجة طبيعية للواجبات التي أقيمت.

ولذلك كان تخلي الأفراد عن مسؤولياتهم في المجتمع، أخطر من ضياع حقوقهم، وسببا مباشرا من أسباب فقدان المجتمع لحاسته، بقطع النظر عن الأسباب المؤدية لذلك.

قد لا يرى الواحد منا بوضوح أن تخلي الفرد عن مسؤولياته يتسبب في خراب مجتمع، ولكن الحقيقة هي كذلك؛ لأن الواجبات التي على أفراد المجتمع، هي الجزئيات الصغيرة التي يتكون منها الكل الكبير، فهي بمثابة الحصى التي يتشكل منها الجبل وكما قيل: لا تحقرن صغيرة *** إن الجبال من الحصى

غياب منظومة تربوية للمجتمع:

والمنظومة التربوية هي الإطار التنظيمي الأمثل، الذي يحسن بكل مجتمع يريد النهوض أن يبد به، ليضع المحتمع على السكة في حركته النهضوية.

يخلط الناس بين المنظومة التربوية والمنظومة التعليمية، لما بينهما من تداخل في التنشئة المدرسية للطفل، وإلا فالواقع أن المنظومة التربوية غير المنظومة التعليمية.

وما نريد الكلام فيه هنا هو المنظومة التربوية، ومناهج التنشئة في المجتمع، التي لها أكثر من محضن، مثل الأسرة والمدرسة والمسجد والروضة...إلخ.

ولعل أهم هذه المحاضن المدرسة، إذا ما روعيت فيها رسالتها الأصلية، وهي التربية والتعليم، ذلك

أن المدرسة التي تقدم تعليما بالدرجة الأولى، إذا ما كانت لها منظومة ناضجة، فإنها تحتوي على عناصر تربوية في البرامج التعليمية، وذلك فيما يتلقى الأطفال من مقررات دراسية، وفي مستوى المؤطرين للمدرسة. فالمعلم والأستاذ يقدمان علما، ولكنهما يقدمان أخلاقا وسلوكا في نفس الوقت، ولذلك نجد ان الأثر التربوي في الطفل من خلال سلوك المعلم والأستاذ، أكثر من الكم العلمي الذي يتلقاه؛ بل ربما تعلق الطفل بالعلم بفضل قدرة الاستاذ على العرض والتحكم في المادة، وإلى جانب المدرسة يوجد الأسرة والمسجد والخطاب السياسي والإعلامي...

والمنظومة التربوية تضعها مؤسسات المجتمع المختلفة، الرسمية والشعبية، والأصل فيها ان تكون متناغمة فيما تضع من أهداف ومبادئ في صياغتها، فلا تكون عادات وعوائد المجتمع في واد وتوجهات السلطة في واد آخر، وإنما لا بد من ان تكون في قالب واحد يهدف إلى غايات معينة وبتوافق، بما في ذلك الجوانب التنموية بشقيها المادي والمعنوي؛ لأن الغاية من المنظومة التربوية هي صناعة المواطن الصالح والمنضبط بواجباته تجاه المجتمع.

تركز المنظومات التربوية في العالم اليوم على إيجاد المواطن المنتج لكيلا يكون عالة على المجتمع، ولكن من الناحية العملية أن هذه المنظومة نفسها تبحث عن المواطن المستهلك لضمان تسويق المنتجات؛ لأن مفهوم الدولة اليوم يريد من الجميع ان يكون مستهلكا للمنتج الاقتصادي وللمعلومة وللموقف السياسي وللمعرفة...إلخ، لتبقى السلطة وباروناتها هي الوحيد المنتج وصاحبة اليد العليا. لقد تغولت الدولة كما يقول عبد لوهاب المسيري.

ورغم هذا النقص الفضيع في مثل هذه المنظومات في بعدها الإنساني، فإنها تمتلك قدرا لا بأس به من التماسك الاجتماعي، بفضل ما في نظمها التربوية من التوازنات التي يحتاج إليها المجتمع ليستقر ولا يفقد حاسته الاجتماعية.

إن غياب المنظومة التربوية التي تحفظ للمجتمع توازنه، يفقده بالضرورة حاسته الاجتماعية، التي قلنا أنها تكون سببا في انهيار المجتمع، كما يمكن أن يكون ثمرة من ثمار فقدانها.